

البديعيات وأثرها في البلاغة العربية

بشير إبراهيم أبوشوفة - جامعة مصراتة - ليبيا
b.aboshofa@edu.misuratau.edu.ly

مُلخَص:

استوقفني موضوع البديعيات مراراً فقد كان أثرها كبيراً على المحسنات البديعية بنوعيتها المعنوي واللفظي، وقد شدني إليها أكثر أنّ موضوعها الوحيد هو مدح سيد الكائنات محمد صلى الله عليه وسلم وبخاصة في هذه الأيام الذي كثر فيه الناعقون من الغرب الملحد الذي يحاول جاهداً النيل من شخصه الكريم برسم صور وتعليقات ساخرة.. وحاولت في هذا البحث أن أدرس القوائد البديعية وأكشف ما فيها من نماذج بديعية جديدة، مبيّناً ما تركته تلك القوائد من أثر على البلاغة العربية. **الكلمات المفتاحية:** البديعيات، القصيدة، البوصيري، البديع، المحسنات، البلاغة.

مقدمة:

نتناول في هذا البحث أهمية القصيدة البديعية وأثرها على البلاغة العربية، وقسمنا البحث إلى مبحثين وخاتمة ذكرنا في المبحث الأول تعريف البديع في اللغة والاصطلاح وتحدثنا عن القصيدة البديعية تعريفها، ونشأتها، وشروطها.. وفي المبحث الثاني ذكرنا فيه نماذج من البديعيات ثم بيننا فيه أثر البديعيات على البلاغة العربية، واستعنا بما تيسر لنا من المصادر والمراجع التي تهتمّ بهذا الموضوع، واعتمدنا في بحثنا على المنهج التحليلي الوصفي، وترجع أهمية الموضوع لكونه يخصّ مدح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولتناوله بشكل مباشر أحد فروع علم البلاغة وهو علم البديع والله الموفق والمستعان.

المبحث الأول: البديع والبديعيات

تعريف البديع:

البديع في اللغة من بدع الشيء ببذعه بدعاً، وابتدعه أنشأه وبدأه، والبديع والبذع الشيء الذي يكون أولاً، وفي التنزيل ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ سورة الأحقاف الآية:9، والبديع هو المُحدث العجيب، وأبدعت الشيء اخترعته لا على مثال (1).

¹- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ط الأولى، دار الحديث، القاهرة، 2003م، مادة (د ع).

وعرّفه القزويني بقوله: "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة، وهو ضربان معنوي ولفظي"⁽²⁾، أما ابن خلدون فقد عرّفه بقوله: "هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التتميق، إمّا بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه..."⁽³⁾.
ويظهر أنّ أوّل من ألف في هذا العلم هو الخليفة أبو العباس عبدالله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد المتوفى سنة 296هـ، فقد ألف كتاباً سمّاه "كتاب البديع" يشتمل على خمسة أبواب كبري للبديع هي: الاستعارة، والجناس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي ثم زاد على هذه الأبواب الخمسة ثلاثة عشر فناً آخر من البديع منها: الالتفات، والرجوع، وتجاهل العارف، وحسن التشبيه، والإفراط في الصفة.. فوصل عدد البديع في كتابه إلى ثمانية عشرة نوعاً من البديع⁽⁴⁾. ثم جاء بعد ابن المعتز قدامة بن جعفر المتوفى سنة 337هـ فزاد أنواعاً أخرى من البديع مثل: التكافؤ والتوشيح والإيغال وغيرها..⁽⁵⁾، ثم تبعهما في هذا أبو هلال العسكري وابن رشيق القيرواني وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم إلى أن وصل عدد أنواع البديع إلى المئات في العصور المتأخرة وهي الفترة التي ظهر فيها ما يسمى بالبديعيات.

نشأة البديعيات:

لم يزل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يتسابقون في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه المدائح النبوية هي لونها من التعبير عن العواطف الدينية وباب من الأدب الرفيع التي لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص، وأكثر هذه المدائح قيلت بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، وما يقال بعد الوفاة يسمى رثاءً، لكنّ المادحين للرسول صلوات الله وسلامه عليه لاحظوا أنه موصول الحياة يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء⁽⁶⁾. ولعل من أقدم القصائد في مدحه صلى الله عليه وسلم دالية الأعشى ومطلعها:

أَلَمْ تَعْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةً أَرَمَدَا وَعَادَاكَ مَا عَادَ السَّلِيمَ الْمُسَهَّدَا

²- القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، ط الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1904م، ص:347.

³- ابن خلدون، المقدمة، تح: عبدالله الدرويش، ط 1، دار البلخي، دمشق، 2004م، ج2، ص:374.

⁴- ينظر: عبدالله بن المعتز، كتاب البديع، تح: عرفان مطرجي، ط الأولى، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 2012م، ص:12. وعبدالعزيز عتيق، علم البديع، ط 1، دار النهضة العربية، بيروت، 1985م، ص:14.

⁵- ينظر: المصدر السابق، ص:17.

⁶- ينظر: زكي مبارك، المدائح النبوية، ط 1، دار المحجة البيضاء، القاهرة، (ب-ت)، ص:17.
تاريخ الاستلام: 2020/11/07
تاريخ النشر: 2020/12/01

وَمَا ذَاكَ مِنْ عِشْقِ النِّسَاءِ وَإِنَّمَا
وقصيدة كعب بن زهير ومطلعها:
بَأَنْتَ سَعَادٌ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ
مُنَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُجَزَّ مَكْبُولٌ⁽⁸⁾
ومنها قصيدة حسان بن ثابت:

إِنَّ الدَّوَائِبَ مِنْ فَهْرٍ وَإِخْوَتَهُمْ
قَدْ بَيَّنَّا سُنَّةً لِلنَّاسِ تَتَّبَعُ⁽⁹⁾
ويرجع الفضل في نشأة البديعيات إلى الشاعر شرف الدين البوصيري وهو "محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن صهناج بن ملال الصهناجي؛ كان أحد أبويه من أبو صير والآخر من دلاص، فركبت له نسبة منهما وقيل الدلاصيري، لكنه اشتهر بالبوصيري، يقول البوصيري: كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم اتفق أن أصابني فالج أبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه البردة فعملتها، واستشفعتُ به إلى الله تعالى في أن يعافيني، وكررت إنشادها وبكيت ودعوتُ وتوسلتُ، ونمتُ فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم، فمسح على وجهي بيده المباركة، وألقى عليّ بردةً فانتبهتُ، ووجدتُ فيّ نهضةً فقامت وخرجت من بيتي، ولم أكن أعلمتُ بذلك أحدًا، فلقيني بعضُ الفقراء فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحتُ بها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: أيها؟ فقال: التي أنشأتها في مرضك، وذكر أولها وقال: والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمايل وأعجبته وألقى على من أنشدتها بردةً، فأعطيته إيّاها..⁽¹⁰⁾ ومطلعها:

أَمِنْ تَدَكَّرِ جِيرَانَ بَدِيٍّ سَلَّمَ
مَرَجَبٌ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بَدِمَ
وسميت هذه القصيدة بالبردة نسبةً إلى البردة التي ألقاها النبي صلى الله عليه وسلم على ناظمها في نومه، وربما سُميت بالبردة لأن البوصيري بسببها بريء من علته⁽¹¹⁾، ويصل عدد أبياتها إلى نحو مائة واثنين وثمانين بيتًا، وقد بلغت شهرة هذه القصيدة ما بلغت فحفظها الكبارُ والصغارُ، وتناقلها الشارحون والمقلدون والمعارضون والمشطرون والمخمسون، وتناقلتها مجالس الصوفية وحلقاتهم، وذكر بعض الشراح أن لكل بيت منها فائدة: فبعضها أمان من الفقر، وبعضها أمان من الطاعون⁽¹²⁾. ويظهر أن البوصيري في برده تأثر بقصيدة ابن الفارض التي مطلعها:

7- الأعرشى، الديوان، ط 1، دار صادر، بيروت، (ب - ت)، ص: 17.

8- كعب بن زهير، الديوان، تخ: أبو سعيد العسكري، ط 1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994م، ص: 26.

9- حسان بن ثابت، الديوان، تخ: عبدأ مهنا، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م، ص: 152.

10- ينظر: الكتبي، محمد بن ساكر، تخ: محمد محي الدين عبدالحميد، فوات الوفيات، ط 1، دار نهضة مصر، القاهرة، 1951م، ج 2، ص: 412.

11- ينظر: علي أبو زيد، البديعيات في الأدب العربي، ط 1، عالم الكتب، بيروت، 1983م، ص: 21.

12- ينظر: زكي مبارك، المدائح النبوية، ص: 148.

هل نازُ ليلي بدت ليلاً بذي سلم
أم بارقُ لاح في الزوراء فالعلم
وأرواح نَعَمَانْ هَلَا نَسْمَةُ سَحْرًا
وماءٌ وَجَرَةٌ هَلَا نَهْلَةٌ بَفَمٍ⁽¹³⁾

ومطلع قصيدة البوصيري:

أمنُ تَدَكَّرِ جيرانِ بذي سلم
مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مَقْلَةٍ بِدَمٍ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاطِمَةٍ
وَأَوْمَضَ الْبَرَقُ فِي الظُّلْمَاءِ مِنْ إِضْمٍ

وبغض النظر عن الجدل الذي دار بين المؤرخين والأدباء حول البوصيري وقصيدته والسبب الذي دعاه إلى إنشائها فإن هذه القصيدة أحدثت صدًى واسعاً بين عامة الناس فقد كانت من الأوراد التي تقرأ في الصباح وفي المساء وكان يُعقد لها مجلسٌ في ضريح الحسين في القاهرة من كل يوم جمعة، وكان لها أثرٌ في حركة التأليف فقد شرحها كثيرٌ من الشُّرَّاح منهم: علي القَلْصَاوي وشهاب الدين بن عماد، وشرحها شيخ زاده محي الدين وغيرهم، لكن أثرها كان أكبر على الشعراء فقد ضمَّنها وشطَّروها، وخمَّسوها وسبَّعوها، وعشَّروها، وعارضوها، وممن عارضها أحمد شوقي بقصيدة سمَّاها "نهج البردة" ومطلعها:

رِيْمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ
أَحَلَّ سَفَاكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ⁽¹⁴⁾

وقصيدة البردة هي فاتحة قصائد البديعيات التي تتابعت بعد هذه القصيدة بشكل متسارع، والبديعيات أو القصائد البديعية هي: قصائد مطولة تزيد القصيدة الواحدة على خمسين بيتاً، وقد تصل إلى ثلاث مائة بيت، والهدف الأساسي منها مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وتناول أوصافه ومزاياه، ويشتمل كل بيت منها على نوع من أنواع البديع صراحةً أو ضمناً، لذلك أطلق العلماء اسم القصيدة البديعية أو البديعيات. ولم يزل الباحثون مختلفين في أول من وضع القصيدة البديعية، بين ثلاثة شعراء هم: علي بن عثمان الأربلي المتوفى سنة 670هـ، وله قصيدة بديعية لامية ذكر في كل بيتٍ منها نوعاً من البديع مطلعها:

بعض هذا الدلال والإدلال
حال بالهجر والتجنب حالي⁽¹⁵⁾

وذهب د. زكي مبارك إلى أن أول قصيدة بديعية هي قصيدة محمد بن جابر الأندلسي المتوفى سنة 779هـ ومطلعها:

بَطِيْبَةٌ أَنْزَلَ وَيَمِّمُ سَيِّدَ الْأَمَمِ
وَأَنْشُرَ لَهُ الْمَدْحَ وَأَنْثُرَ أَطْيَبَ الْكَلَمِ
فقال معلِّقاً على صاحب هذه القصيدة: "...لقد ابتكر فناً جديداً هو البديعيات، وذلك أن تكون القصيدة في مدح الرسول، ولكن كل بيت من أبياتها يشير إلى فنٍّ من فنون البديع..."⁽¹⁶⁾

¹³ - ينظر: المصدر نفسه، ص: 151.

¹⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص: 168.

¹⁵ - ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص: 53.

وصفي الدين الحلبي المتوفى سنة 750هـ ومطلع قصيدته:
 إن جئت سلعاً فسَلَّ عن جيرة العَلَمِ وإقرَّ السَلَامَ على عُربِ بذي سَلَمِ
 وقد أفاض علي أبو زيد في هذا الموضوع وخُصَّ إلى أن صفي الدين الحلبي هو
 أوَّل من نظم قصيدة بديعية مكتملة⁽¹⁷⁾.

شروط القصيدة البديعية:

والقصيدة البديعية يجب أن تتوفر فيها الشروط الآتية:

1. أن يزيد عدد أبياتها على الخمسين بيتاً.
2. أن يكون موضوعها الأساسي مدح النبي صلى الله عليه وسلم.
3. أن يشتمل كل بيت على لونٍ من ألوان البديع صراحةً أو ضمناً.
4. أن تكون منظومةً على أوزان البحر البسيط.
5. أن يكون رويها الميم المكسورة⁽¹⁸⁾.

المبحث الثاني: القصائد البديعية وأثرها في البلاغة

أولاً: أشهر القصائد البديعية:

استمرَّ تأثير بردة البوصيري على الشعراء في العصور المتابعة، ومن أوائل
 من تأثر البردة وافتتن بها صفي الدين الحلبي فأنشأ قصيدةً بديعيةً وشرحها بشرح
 أسماء الكافية، ومن أهم القصائد البديعية وأشهرها ما يلي:

1. الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع:

والقصيدة كان لها أثرٌ كبيرٌ في البديعيات هي بديعية عبد العزيز بن سرايا بن
 علي بن أبي القاسم صفي الدين الحلبي المتوفى سنة 750هـ⁽¹⁹⁾، وقد شرحها في
 كتابه شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع تحقيق د. نسيب
 نشاوي، وعارض صفي الدين الحلبي بقصيدته هذه قصيدة البردة للبوصيري،
 والغريب أنه ذكر في سبب تأليفه لقصيدته قصةً تُشبه إلى حدٍّ كبيرٍ القصة التي
 تُروى للبوصيري، فقد قال: "... فعرضت لي علةٌ طالت مدتها، وامتدت شدتها،
 واتفق لي أن رأيت في المنام رسالةً من النبي عليه أفضل الصلاة والسلام
 يقاضاني المدح، ويعدني البرء من السقام فعدلتُ عن تأليف الكتاب إلى نظم قصيدة

¹⁶- زكي مبارك، المدائح النبوية، ص: 169.

¹⁷- علي أبو زيد، البديعيات في الأدب العربي، ص: 69.

¹⁸- ينظر: بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، ط 4، دار العلم للملايين، بيروت،
 1996م، ص: 11.

¹⁹- ينظر: في ترجمته: الكتبي، فوات الوفيات، ج 2، ص: 235.

تجمع شتات البديع وتنظرز بمدح مجده الرفيع، فنظمت مائة وخمسة وأربعين بيتاً في بحر البسيط تشتمل على مائة وخمسين نوعاً من محاسنه..⁽²⁰⁾ وهي أول بديعية وصلت إلينا متكاملة، وفي كل بيت من أبياتها ذكر نوعاً من البديع، وقال في كتابه الكافية: ألزمت نفسي في قصيدتي عدم التكلف، وترك التعسف، والجري على ما أخذت به نفسي من رقة اللفظ وسهولته، وقوة المعنى وصحته، وبراعة المطلع والمنزع، وحسم المطلب والمقطع.. وأعوذ بالله أن أكون ممن زكى نفسه، أو مدح فهمه وحده، وإنما أشرت إلى حسن الاختيار لا الإحسان في الاختيار، واختبار المرء شاهد عقله، وشعره شاهد فضله⁽²¹⁾. ومطلع قصيدته:

إِنْ جِئْتُ سَلْعاً فَسَلِّ عَنْ جَيْرَةِ الْعَلْمِ وَاقْرَ السَّلَامَ عَلَى عَرَبٍ بِذِي سَلَمٍ
وَأَوَّلُ أَنْوَاعِ الْبَدِيعِ فِي قَصِيدَتِهِ "بِرَاعَةِ الْمَطْلَعِ" وَفِي دِيْوَانِهِ "بِرَاعَةِ الْإِسْتِهْلَالِ"⁽²²⁾
وبراعة المطلع هي سهولة اللفظ، وصحة السبك، ووضوح المعنى، ورقة التشبيب، ومثل له بقول أبي تمام:

السِّيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

وقول المتنبي:

لَا حَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالٌ فَلْيُسْعِدِ النَّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ
والنوع الثاني من البديع في البيت "تجنيس التركيب" وهو ما تماثل ركناه بأن تكون الكلمة الأولى مفردة والثانية مركبة، ومثاله من البيت "سلعاً، وسل عن"، ومن الجناس في البيت "السلام" و"سلم" وهو كما قال من الجناس المشتبه⁽²³⁾.
ومن أشهر أنواع المحسنات التي وردت في الكافية ما يلي:

أ. **الطباق أو المطابقة:** وهو الجمع بين الشيء وضده في الكلام⁽²⁴⁾ وذلك في قوله:
قَدْ طَالَ لَيْلِي وَأَجْفَانِي بِهِ قَصُرَتْ عَنِ الرُّقَادِ فَلَمْ أُصْبِحْ وَلَمْ أَنْمِ⁽²⁵⁾
وعرف المطابقة بقوله: "هو الإتيان بلفظين متضادين، فكأن المتكلم طابق الضد بال ضد"⁽²⁶⁾ ومثالها من القصيدة "طال، قصرت".

²⁰- صفي الدين الحلبي، شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع، تح: نسيب نشاوي، ط 2، دار صادر، بيروت، 1992م، ص: 55.

²¹- ينظر: المصدر نفسه، ص: 56.

²²- صفي الدين الحلبي، الديوان، ط الأولى، دار صادر، بيروت، (ب - ت)، ص: 685.

²³- صفي الدين، الكافية، ص: 59.

²⁴- ينظر: السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ط 1، المكتبة العصرية، بيروت، (ب - ت)، ص: 303.

²⁵- الحلبي، الديوان، ص: 686.

²⁶- الحلبي، الكافية، ص: 72.

ب. **المقابلة:** وهو أن يأتي المتكلم بلفظين متوافقين فأكثر، ثم بأضدادهما أو غيرهما على الترتيب، وهذا أحد الفرقين بينها وبين المطابقة⁽²⁷⁾، ووردت المقابلة في الكافية في قوله:

كَانَ الرِّضَى بِدُنُوتِي مِنْ حَوَاطِرِهِمْ فَصَارَ سُخْطِي لِإِعْدِي عَن جَوَارِهِمْ⁽²⁸⁾
قابل: كان بصرار، والرضي بالسخط، والدنو بالبعد، ومن بعن، وخواطرهم بجوارهم فقابل بين خمسة مقابل خمسة أخرى فهي عشرة متقابلة وأفضل أنواع المقابلة ما كثر فيه الأضداد من غير تكلف وتعسف.

ج. **رد العجز على الصدر:** وهو في النظم أن يكون العجز في آخر البيت والصدر إما أن يكون في أول المصراع الأول، أو في حشوه، أو آخره، وإما في صدر المصراع الثاني⁽²⁹⁾ ومثاله في الكافية قوله:

فَمِي تَحَدَّثَ عَن سِرِّي فَمَا ظَهَرَتْ سَرَائِرُ الْقَلْبِ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ فَمِي⁽³⁰⁾
وعرف الحلي هذا المحسن بقوله: " أن يأتي الشاعر بكلمة في صدر البيت متقدمة أو متأخرة ثم يأتي بها بلفظها ومعناها أو بما تصرف من لفظها في عجزه، وأحسنه ما كانت اللفظة افتتاحاً للبيت، والأخرى ختاماً له، كقول الشاعر:

تَمَنَّتْ سُلَيْمَى أَنْ نَمُوتَ صَبَابَةً وَأَهْوَى شَيْءٍ عِنْدَنَا مَا تَمَنَّتْ⁽³¹⁾

ومثالها في القصيدة كلمة "فمي" جاءت في أول البيت وآخره.

د. **التسجيع:** وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير، وأفضله ما تساوت فقره⁽³²⁾، وهو أنواع، ويكون في الشعر وفي النثر وورد في القصيدة في قوله:

فِعَالٌ مُنْتَظِمٌ الْأَحْوَالِ مُقْتَحِمٌ إِلِـ أَهْوَالِ مُلْتَزِمٌ بِإِلَهِ مُعْتَصِمٌ⁽³³⁾

وعرفه الحلي بقوله: أن يأتي المتكلم في أجزاء كلامه أو بعضها بأسجاع غير متزنة بزنة عروضية ولا محصورة في عدد معين بشرط أن يكون روي الأسجاع على روي البيت، ومثل لها بقول أبي تمام:

تَجَلَّى بِهِ رُسْدِي وَأَثَرْتُ بِهِ يَدِي وَفَاضَ بِهِ نَمْدِي وَأَوْرَى بِهِ زَنْدِي⁽³⁴⁾

²⁷- ينظر: ابن معصوم المدني، أنوار الربيع في أنواع البديع، تح: شاكر هادي، ط 1، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، 1968م، ج 1، ص: 298.

²⁸- الحلي، الديوان، ص: 686.

²⁹- السيد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 333.

³⁰- الحلي، الديوان، ص: 687.

³¹- الحلي، الكافية، ص: 82.

³²- السيد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 330.

³³- الحلي، الديوان، ص: 695.

³⁴- الحلي، الكافية، ص: 194.

هـ. **براعة الختام:** ويسمى حسن الخاتمة وحسن المقطع، وعرفه بقوله: أن تُختتم القصيدة بأجود بيت يحسن السكوت عليه، لأنه آخر ما يبقى في الأسماع وربما حُفظ دون غيره لقرب العهد به، ومثّل له بقول المتنبي:

وَأَعْطَيْتَ الَّذِي لَمْ يُعْطَ خَلْقٌ عَلَيكَ صَلَاةَ رَبِّكَ وَالسَّلَامَ⁽³⁵⁾

ومثاله في القصيدة قوله:

فَإِنْ سَدَدْتُ فَمَدَحِي فِيكَ مَوْجِبُهُ وَإِنْ شَقَيْتُ فَذَنْبِي مَوْجِبُ النَّقَمِ⁽³⁶⁾

هذه بعض النماذج من أنواع البديع التي وردت في الكافية، وقد استطاع الحلبي أن يجمع هذا العدد الكبير من المحسنات المعنوية واللفظية ويعرّف كل نوع ويُمثّل له بأمثلة من القرآن الكريم ومن الشعر العربي ممّا يجعل هذه القصيدة مرجعاً مهماً للبلاغة العربية، ويظهر أنه استفاد من كتب السابقين فقد قال عن شرح كتابه الكافية إنه نتيجة سبعين كتاباً لم أعد منها باباً، فاستغنّ بها عن حشو الكتب المطوّلة، ووعر الألفاظ المعضلة، وذكر أنّ ابن أبي الإصبع كتاباً في هذا العلم اسمه "تحرير التحرير" لم يؤلفه إلا بعد الوقوف على أربعين كتاباً في هذا العلم⁽³⁷⁾، وقد تركت قصيدة صفي الدين الحلبي أثراً طيباً فيمن جاء بعده فقد صنّف عبد الغني النابلسي شرحاً لهذه القصيدة سمّاه "الجوهر السنّي" في شرح بديعية الصفي⁽³⁸⁾.

2. بديعية ابن جابر الأندلسي:

هو محمد بن أحمد بن علي المعروف بابن جابر الأندلسي الضرير المتوفى سنة 780هـ⁽³⁹⁾، وقد ظهر أثر البردة في شعره، ومطلع قصيدته البديعية:

بَطِيئَةٌ أَنْزَلَ وَيَمَّمُ سَيِّدَ الْأُمَمِ وَأَنْثَرُ لَهُ الْمَدْحَ وَأَنْشُرُ أُطَيْبَ الْكَلِمِ⁽⁴⁰⁾

وسمّاها "الحلة السّيرا في مدح خير الوري"⁽⁴¹⁾، ولاقت هذه القصيدة قبولاً من معاصريه، فقد قال عنها أبو جعفر الإلييري: هي قصيدة نادرة في حسنها تجني

³⁵ - ينظر: المصدر نفسه، ص: 333.

³⁶ - ينظر: الحلبي، الديوان، ص: 702.

³⁷ - ينظر: الحلبي، الكافية، ص: 55.

³⁸ - ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، ط التاسعة، دار المعارف، مصر، (ب - ت)، ص: 360.

³⁹ - ينظر: في ترجمته: الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، الأولى، دار المدينة، القاهرة، 1911م، ص: 246، وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط الأولى،

دار إحياء التراث العربي، بيروت، (ب - ت)، ج 3، رقم 900، ص: 339.

⁴⁰ - ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص: 61.

⁴¹ - الحلة السيرا أي مذهبة أو مخططة بخطوط صفراء.

- ثمر البلاغة من غصنها، وتنهل سواكب الإجادة من مزنها، لم يُنسج على منوالها، ولا سمحت قريحة بمثالها⁽⁴²⁾. وهي قصيدة بديعية تقع في نحو مائة وسبعة وسبعين بيتاً، نظمها على طريقة صفي الدين الحلبي ذكر فيها واحداً وخمسين نوعاً من البديع منها المعنوي ومنها اللفظي. وتميّزت هذه البديعية بميزات هي:
1. الاقتصار على الأنواع البديعية المحضة.
 2. الفصل بين الأنواع اللفظية والمعنوية.
 3. تقسيم النوع الواحد إلى أجزاء.
 4. تتميم البديعية بمجموعة من الأبيات غايتها إكمال المعنى وإن لم تحفل بأنواع جديدة من البديع⁽⁴³⁾.

3. بديعية الموصلية:

هو علي بن الحسين بن علي بن بكر بن محمد بن أبي الخير عز الدين الموصلية⁽⁴⁴⁾، وقصيدته تقع في مائة وخمسة وأربعين بيتاً، مطلعها:

براعة تستهل الدمع في العلم عبارة عن نداء المفرد العلم
عارض فيها بديعية صفي الدين الحلبي، واقتربت بديعته باسم شرحه عليها وهو "التوصل بالبديع إلى التوصل بالشفيع" ولم يعرف لبديعته اسم⁽⁴⁵⁾، وألزم نفسه بذكر اسم النوع البديعي إضافة إلى ذكر مثال له، فمثلاً "براعة تستهل" تشير إلى المحسن البديعي براعة الاستهلال، وعن الاستطراد يقول:

(يَسْتَطِرْدُ) الشوق خيلُ الدمع سابقه فيفضلُ السحبَ فضلُ العُربِ للعجم
وفي الاستعارة يقول:

دع المعاصي فشيئُ الرأسِ مشتعلٌ (بالاستعارة) من أرواحها العُقم
وفي الطباق يقول:

أبكي فيضحك عن در (مطابقة) حتى تشابه منثورٌ بمننظم⁽⁴⁶⁾
وهذا المنهج الذي اختاره الموصلية ضيق عليه الخيارات في اختيار الكلمات والصور الشعرية، يقول الحموي: "قصيدة بديعية للشيخ عز الدين الموصلية، التزم فيها بتسمية النوع البديعي وورى به من جنس الغزل ليتميز بذلك على الشيخ صفي الدين الحلبي... لأنه ما التزم ببديعته بحمل هذا العبء الثقيل غير أن الشيخ

⁴² - ينظر: زكي مبارك، المدائح النبوية، ص: 169.

⁴³ - ينظر: علي أبو زيد، البديعيات في الأدب، ص: 267.

⁴⁴ - ينظر: في ترجمته، الدرر الكامنة، ج 3، ص: 43،

⁴⁵ - ينظر: علي أبو زيد البديعيات في الأدب، ص: 76،

⁴⁶ - ينظر: المصدر نفسه، ص: 78.

عز الدين ما أعرب عن بناء بيوت ما أذن الله أن ترفع ولا طالبت يده لإبهام العقادة إلى شيء من إشارات ابن أبي الإصبع وربما رضي في الغالب بتسمية النوع ولم يعرب عن المسمى ونثر شمل الألفاظ والمعاني لشدة ما عقده نظماً⁽⁴⁷⁾، وعقد النابلسي مقارنة بين الحلي والموصلي فقال: ".. ثم جاء بعده الشيخ عز الدين الموصلي رحمه الله تعالى فعرضه بقصيدة على منوال قصيدته وذكر من الأنواع ما ذكره وزاد عليه بعض شيء يسير من اختراعاته معجباً بذكر اسم النوع البديعي في ألفاظ البيت مورياً به لنلا يحتاج إلى تعريف النوع من خارج النظم، ولكنه تعسّف وتكلف في غالب أبياته وهجر مضجع الرقة والانسجام ثم شرحها شرحاً بيّن فيه مقصده ومراده مع الاختصار ولم يشف غلّة الأفكار"⁽⁴⁸⁾. ومع هذا كله تظل محاولة الموصلي الجمع بين اسم النوع البديعي ومثاله محاولة جريئة تستحق الثناء والتقدير وهي تجربة جديدة في البديعيات استفاد منها من جاء بعده من أهل هذا الفن.

4. بديعية ابن حجة الحموي:

هو تقي الدين أبوبكر بن علي بن عبدالله الحموي تقي الدين ابن حجة إمام أهل الأدب في عصره⁽⁴⁹⁾، وله بديعية أسماها "تقديم أبي بكر" مطلعها:
لي في ابتدا مدحك يا عربّ ذي سلمٍ براعة تستهلّ الدمع في العلم⁽⁵⁰⁾
وهي قصيدة تقع في مائة واثنين وأربعين بيتاً، يقول في معرض التعريف بهذه البديعية: "فهذه البديعية نسجتها بمدحه صلى الله عليه وسلم، على منوال طرح البردة... وجاريت الصفيّ مقيداً بتسمية النوع وهو من ذلك محلول العقال وسمّيتها تقيد أبي بكر علمًا، أنه لا يسمع من الحليّ والموصلي في هذا التقديم مقال..."⁽⁵¹⁾، حاول الحموي في قصيدته أن يقتدي بعز الدين الموصلي في تضمين ألفاظ البيت ما يشير إلى نوع المحسن البديعي وأن يقتدي في الرقة وجمال النظم وسلاسته بالحلي، ولم يكن له فضل اختراع أو زيادة على ما تقدموه، ووضع شرحاً مطولاً لبديعيته سمّاه خزنة الأدب أكثر فيه من الأمثلة والشواهد الشعرية⁽⁵²⁾، ولم تسلم هذه البديعية من سهام النقد، قال صاحب نفحات الأزهار: .. جاء بعده العلامة تقي

⁴⁷ - ابن حجة، خزنة الأدب، تح: كوكب دياب، ط 1، دار صادر، بيروت، 2005م، مجلد1، ص: 236.

⁴⁸ - النابلسي، نفحات الأزهار على نسيمات الأسحار، ط 1، عالم الكتب، ومكتبة المتنبي، القاهرة،

(ب - ت)، ص: 3.

⁴⁹ - ينظر في ترجمته: الزركلي، الأعلام، ط 7، دار العلم للملايين، بيروت، 1986م، ج2، ص: 67.

⁵⁰ - ينظر: الحموي، ص: 307.

⁵¹ - المصدر نفسه، ص: 305.

⁵² - ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص: 64.

الدين أبوبكر بن حجة الحموي رحمه الله تعالى فعارضه وجاراه وزاحمه فيما اقترحه واجترأه ولم يزد على ما ذكره من الأنواع شيئاً، بل وربما نقص عن ذلك معيماً بعض الأنواع بحسب ما اقتضته طبيعته والتزم تسمية النوع البديعي في أثناء البيت كما التزمه الموصلني ثم شرح قصيدته شرحاً أخذ فيه بأذيال الإطالة والبسه حلل الملالة واعترض فيه على القوم وقال لمتعصبي أفكاره هلموا فاليوم اليوم وتشدق غي عبارته وأفحش في إشارات مع ما في أبيات قصيدته من الركة والقلاقة واختلاس كلمات الغير بحسب ما عنده من الفاقة⁽⁵³⁾، وبين زكي مبارك أن بديعية الحموي لم توضع في الأصل لمدح النبي صلى الله عليه وسلم وإنما هي قصيدة فنية مدح بها النبي مدحاً صناعياً فلم يكن هدف الشاعر عند نظمه البيت أن يبلغ مبالغ الصالحين في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وإنما كان همّه أن يُجيد الإفصاح عما يقصد إليه من فنون البديع⁽⁵⁴⁾، ومع أن الحموي لم يزد شيئاً من البديع على ما ذكره سابقوه، وعلى الرغم من كل هذه المؤاخذات تظل بديعية الحموي من أكثر القصائد البديعية اهتماماً فقد تناولها الكثير من النقاد والباحثين ولعلّ السبب يرجع إلي شهرة صاحبها وكتابه خزانة الأدب التي وردت فيه القصيدة، وللمنهج الذي سلكه الحموي باقتداء طريقة صفي الدين والموصلني في قصيدتيهما.

5. بديعية عائشة الباعونية:

هي التقية عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر الباعوني أم عبدالوهاب، شاعرة أديبة فقيهة، نسبتها إلى باعون من قرى عجلون في شرقي الأردن، مولدها ووفاتها في دمشق، سنة 922هـ⁽⁵⁵⁾، وسُمّت بديعيتها "بديع البديع في مدح الشفيق: ومطلعها: في حُسن مَطْلَعِ أَمْرَارِ بَدِي سَلَمٍ أَصْبَحَتْ فِي زَمْرَةِ الْعُشَاقِ كَالْعَلَمِ ولها بديعية أخرى أسمتها "الفتح المبين في مدح الأمين"⁽⁵⁶⁾. قال صاحب نفحات الأزهار: "... ثم جاءت بعده فاضلة الزمان عائشة الباعونية- رحمها الله تعالى - ونظمت قصيدة على مثل قصيدته مع عدم تسمية النوع تمسكاً بطلاقة الألفاظ وانسجام الكلمات، وشرحتها شرحاً مختصراً وقفت عليه بخطها - رحمها الله تعالى - أسفرت فيه عن لثام البيان بقدر الطاقة وحسب التيسير والله بما تعملون خبير بصير"⁽⁵⁷⁾. ومن أمثلة البديع الوارد في قصيدتها ما يلي:

53 - ينظر: النابلسي، نفحات الأزهار، ص: 3

54 - ينظر: المدائح النبوية، زكي مبارك، ص: 177.

55 - الزركلي، الأعلام، ج 3، ص: 241.

56 - ينظر: علي أبو زيد، البديعيات في الأدب، ص: 103.

57 - النابلسي، نفحات الأزهار، ص: 3

1. **المقابلة:**
بَدَا الصُّدُودُ يُبْعَدِي عَن جِوَارِهِمْ فَعَادَ وَصَلَ يُقْرَبِي مِن مَحَلِّهِمْ
2. **التشطير:**
بِالْحَقِّ مُشْتَعَلٌ فِي الْخَلْقِ مُكْتَمِلٌ بِإِلَهِ مُعْتَصِمٌ بِالْبَرِّ مُلْتَزِمٌ
3. **المدح في معرض الذم:**
لَا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى أَنْ لَا يُضَامُ لَهُمْ وَفَدٌّ وَلَا يَبْخَلُوا فِي الرَّفْدِ فِي الْعَدَمِ
4. **الإيغال:**
هُمُ النُّجُومُ فَمَا أَسْنَى مَطَالِعِهِمْ فِي أَفْقِ مَلْتَنِهِ الْبَيْضَا يَهْدِيهِمْ
5. **براعة الختام:**
مَدَحَتْ مَجْدَكَ وَالْإِخْلَاصُ مُلْتَزِمِي فِيهِ وَحُسْنُ إِمْتِدَاحِي فَيْكَ مُخْتَمِي (58)

ثانياً: أثر القوائد البيديعية في البلاغة

بعد استعراض أهم القوائد البيديعية التي لاقت قبولاً وشهرة واسعة يمكن القول أنّ القوائد البيديعية كانت تهدف إلى أمرين:

الأول: مدح النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كانت النفوس ولا تزال تهفو بحبه وتسعى إلى التقرب منه وترجو شفاعته عليه أفضل الصلاة والسلام، وهذا الحب الجارف للنبي أطلق ألسنة الشعراء وأخيلتهم وألهب مشاعرهم فتسابقوا في هذا الميدان من قصيدة البردة للبوصيري إلى عشرات القوائد بعده.

الثاني: التسابق في عرض أمثلة للبيديع وذكر اسم كل نوع منه، وهذا الأمر أسهم في إحياء البلاغة العربية من جديد وبخاصة البيديع، على الرغم من إسراف بعض الأدباء والشعراء في استعمال البيديع حتى شمل أنواعاً من المباحث البيديعية كالاستعارة والتشبيه والكناية وبعضاً من صور المعاني ... ومع هذا كله فقد كان لتلك القوائد البيديعية أثرٌ على الحياة الأدبية، ويمكن تلخيصه في النقاط الآتية:

1. تعميم البلاغة ونشرها بين الناس:

كانت البلاغة قبل البيديعات علماً لا يرتاده إلا خاصةً الناس كالنحو والصرف وغيره من العلوم، لكن بعد انتشار البيديعات والتنافس في إنشائها غدت البلاغة وبخاصة البيديع فناً شعبياً يرتاده الجميع يتسابقون في فهمه وشرحه بعد أن كانت البلاغة في برج عاجي لا يدركه إلا خواص الناس (59).

58- ينظر: البيديعات الخمس، ط 1، مطبعة المعارف، القاهرة، 1897م، ص: 22.

59- ينظر: بكرى شيخ أمين، البلاغة في ثوبها الجديد، ص: 24.

2. ترسيخ علم البديع وتأكيد انفصاله عن علمي البيان والبديع:

منذ نشأة البديع علي يد عبدالله بن المعتز في آخر القرن الثالث الهجري من خلال كتابه البديع ظلّ متداخلاً مع علمي البيان والمعاني السابقين له في النشأة حتى إنّ عبدالله بن المعتز نفسه عدّ الاستعارة والتعريض والكناية وحسن التشبيه من أنواع البديع، واستمرّ هذا التداخل إلى القرن السابع حيث ظهرت البديعيات التي اشتملت على أنواع البديع دون غيره إلا في حالات نادرة، ومما يؤكد هذا الانفصال توضيح أنواع البديع وترسيخ قواعده الشروح التي قامت على هذه البديعيات التي اقتصر على شرح فنون البديع دون سواه⁽⁶⁰⁾.

3. العودة بالبديع إلى المدرسة البديعية:

ظلّ علم البديع لفترة ليست بالقصيرة حبيسَ المدرسة الكلامية التي تعتمد على الاتجاه الفلسفي العقلي التي ترسّخت بظهور صاحب مفتاح العلوم أبي يعقوب السكاكي، وتراجع بالتالي التوجّه الأدبي للبديع الذي يسعى إلى الإكثار من الشواهد نظماً ونثراً والبحث عن مواطن الجمال فيها، وبظهور البديعيات عاد التوجه إلى المدرسة الأدبية التي تجنح إلى الإكثار من الشواهد وإطلاق العنان للخيال والابتعاد عن القوالب الجاهزة المفردة.

4. استنباط أنواع بديعية جديدة:

أسهم التسابق في إنشاء البديعيات في استخراج أنواع لم تكن موجودة من قبل من المحسنات البديعية سواء كانت أنواعاً جديدة لم تعرف من قبل، أو أنواعاً تفرّعت من أنواع معروفة سلفاً، وقد ذكر صاحب كتاب البديعيات في الأدب قائمةً طويلة من أنواع البديع الجديدة أو المتفرعة من الأنواع القديمة، من أمثلة الأنواع المتفرعة من غيرها: المشاكلة المعنوية، والتكرار المعنوي، وموازنة الألفاظ المتقاربة، والاقتناس من مسائل الفقه، ومن أمثلة الأنواع الجديدة: الاقتضاب، الاحتباك، التفضيل، تنسيق الصفات، الاستشهاد⁽⁶¹⁾.

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة مع القوائد البديعية يمكن تحديد النتائج الآتية:

- علم البديع هو ثالث علوم البلاغة نشأةً وأهميّةً، وعبدالله بن المعتز هو أوّل من أَلّف في هذا العلم.

⁶⁰- ينظر: علي أبو زيد، البديعيات في الأدب، ص: 258، وأحمد إبراهيم موسى، الصبغ البديعي في اللغة العربية، ط 1، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1969م، ص: 253.

⁶¹- ينظر: علي أبو زيد، البديعيات في الأدب، ص: 275.

- كان حبُّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومدحُه هو الباعثُ الأوَّلُ في نشأة القصائد البدعيَّةِ.
- قصيدة البوصيري المسماة بالبردة لاقتْ اهتمامًا واسعًا من جميع المسلمين وكانت هي المحفِّزُ الأوَّلُ في انطلاق البديعيات.
- للقصائد البدعية شروطٌ محدَّدةٌ يجب الالتزام بها.
- تسابق شعراء البديعيات في ذكر أنواع البديع مع ذكر اسمائها أحيانًا، وقد تفاوتت قصائدهم شهرةً وإبداعًا.
- كثرت شروحُ البديعيات وتعدّدتُ ممَّا أضاف للمكتبة العربية كتبًا مهمَّة في علم البديع.
- كان للقصائد البدعية أثرٌ واضحٌ في إثراء البلاغة العربية وبخاصة البديع وذلك باستخراج أنواع جديدة منه.



المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- أحمد إبراهيم موسى، الصبغ البديعي في اللغة العربية، ط الأولى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1969م.
- الأعشى، الديوان، ط الأولى، دار صادر، بيروت، لبنان، (ب - ت).
- بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، ط الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1996م.
- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (ب - ت).
- ابن حجة، خزنة الأدب، تح: كوكب دياب، ط الأولى، دار صادر، بيروت، لبنان، 2005م.
- ابن خلدون، المقدمة، تح: عبدالله الدرويش، ط الأولى، دار البلخي، دمشق، سوريا، 2004م.
- ابن معصوم المدني، أنوار الربيع في أنواع البديع، تح: شاكراً هادي، ط الأولى، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، 1968م.
- ابن منظور، لسان العرب، ط الأولى، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2003م، مادة (ب د ع).
- حسان بن ثابت، الديوان، تح: عبدأ مهنا، ط الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1994م.
- الزركلي، الأعلام، ط السابعة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1986م.
- زكي مبارك، المدائح النبوية، ط الأولى، دار المحجة البيضاء، القاهرة، مصر، (ب - ت).
- السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ط الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، (ب - ت).
- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ط التاسعة، دار المعارف، مصر، (ب - ت).
- الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ط الأولى، دار المدينة، القاهرة، مصر، 1911م.
- صفي الدين الحلبي، الديوان، ط الأولى، دار صادر، بيروت، لبنان، (ب - ت).
- صفي الدين الحلبي، شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع، تح: نسيب نشاوي، ط الثانية، دار صادر، بيروت، لبنان، 1992م.
- عبدالعزیز عتيق، علم البديع، ط الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1985م.

- عبدالله بن المعتز، كتاب البديع، تح: عرفان مطرجي، ط الأولى، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 2012م.
- علي أبو زيد، البديعيات في الأدب العربي، ط الأولى، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1983م.
- القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، ط الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1904م.
- الكتبي، محمد بن شاكر، تح: محمد محي الدين عبدالحميد، فوات الوفيات، ط الأولى، دار نهضة مصر، القاهرة، مصر، 1951م.
- كعب بن زهير، الديوان، تح: أبو سعيد العسكري، ط الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1994م.
- البديعيات الخمس، مجموعة، ط الأولى، مطبعة المعارف، القاهرة، مصر، 1897م.
- النابلسي، نفحات الأزهار على نسمات الأسحار، ط الأولى، عالم الكتب، لبنان، ومكتبة المتنبّي، القاهرة، (ب - ت).

